

قصة دخولي إلى إيران مصطفى حامد

تمهيدا للتعليق على ما تطوع به البعض من ربط مشكلتي مع إيران بأسباب طائفية أو عرقية ، أروى باختصار قصة تربط تلك النقطة بالنقطة السابقة:

- في الوقت الذي كنت أتابع فيه مشروع شبكة إعلامية خاصة بالمقاومة الجهادية القادمة في أفغانستان ، كنت أتابع تطورات الحرب وأيضا تطورات قضية الأفيون التي كنت أراه الباعث الأول لتلك الحرب ، أما الباعث الثاني للحرب فكان خطوط نقل الطاقة من جمهوريات آسيا الوسطى إلى ميناء جوادر الباكستاني عبر أفغانستان . وكنت أرى أن دور الأفيون أهم بكثير نظرا للعائدات الخيالية التي تحصل عليها أمريكا من المتاجرة بمشتقاته عالميا.

كنت في مدينة هيرات الحدودية قرب إيران ، وقضيت عدة أيام هناك ، وفي اليوم السابق لسقوطها المفاجئ وغير المتوقع عرض " مولوى عبد الحميد أخونزاده " مدير مكتب مكافحة المخدرات في إمارة أفغانستان ، أن أرافقة في رحلة إلى الحدود مع إيران حيث كان من المقرر أن يجتمع هناك مع وفد إيراني لبحث الأحداث الجارية وموضوعات مشتركة على رأسها الدعم الإيراني للمزارعين الأفغان الذين تضرروا من قرار وقف زراعة الأفيون ، ومساعدتهم على إيجاد بدائل عن زراعتة.

في الصباح إعتذر مولوى عبد الحميد بمشاغل طارئة وطلب مني مرافقة نائبة الذي سيقوم بالمهمة نيابة عنه . وصلنا عند الظهر إلى الحدود ومالبث أن وصلت شائعة عن سقوط هيرات ، لم نصدقها في البداية حيث أننا تركنا المدينة هادئة تماما . وبعد عدة ساعات من القلق تأكدت الشائعة التي تقول أن أعوان تحالف الشمال (المتحالف مع إيران ومن ثم الولايات المتحدة) قد سيطروا على المدينة من داخلها . وهكذا صرنا محاصرين بين العدو من خلفنا والحدود الإيرانية من أمامنا.

رفضت سلطات الحدود الإيرانية عبور أحد من الأفغان ، أو غيرهم ، حتى يتمكن تحالف الشمال من القبض على أي عناصر موالية لطالبان من المتواجدين على الحدود . لم تجد إستعطفات الأفغان وكثير منهم كان مهددا بالقتل ، لكن إيران لن تكن لتتخلى عن دعم مجهود حلفائها الشماليين الذين أداروا مجازر بشعة في كل مكان تمكنوا من السيطرة عليه . في الأخير وبعد مسيرة ليلية طويلة وخطيرة في الصحراء الحدودية تعرضنا خلالها لإطلاقات نارية من حراس الحدود ، تمكنت من التسلل إلى الأراضي الإيرانية مع مجموعة من الأصدقاء الطاجيك من أعضاء حزب النهضة تصادف وجودهم في ذلك المنفذ الحدودي وقتها ، فكانوا وسيلتي في النجاة نتيجة معرفتهم ببعض أسرار الثغرات الحدودية وصدقات لهم على جانبيها.

خلاف سياسي فقط

القصة السابقة تلقي بعض الضوء عن علاقة طالبان بالحكومة الإيرانية ، وأيضا بموقفى كأحد المقيمين فى تلك الإمارة، وأحد القلائل المنادين بعلاقات طبيعية وجيدة مع الجيران ، خاصة باكستان وإيران بأعتبارهما منافذ لأفغانستان على البحار والعالم الواسع الذى خلفها . وكنت أرى أن إيران تأتى فى المقدمة بصفتها الداعم الأول لتحالف الشمال المحارب للإمارة، وبالتالي فإن التفاهم معها قد يودى إلى عودة الهدوء إلى البلاد.

وعلى مدى عدة سنوات شاركت فى نوع من الدبلوماسية الشعبية من أجل تحسين العلاقات بين الإمارة وإيران ، وترددت ما بين قندهار وطهران مستفيدا من دعم أصدقاء من قيادات حزب النهضة الطاجيكي المقيمين فى طهران . لم تسفر الدبلوماسية الشعبية ولا تلك الرسمية سوى عن تحسن طفيف فى العلاقات.

(عند إعتقالى فى بداية عام ٢٠٠٣ حاکمتنى محكمة الثورة بتهمتين هما : عبور الحدود بطريقة غير قانونية ، وتلقى أموال من حركة طالبان . ثم حكمت بسجنى عشرين شهرا . وبعد إنتهاء عقوبة السجن الذى إمتد لعامين أدخلت إلى إقامة جبرية لسنوات متطولة بدون تهمة أو محاكمة).

- من ناحية شكلية كانت مواقف إيران المعلنة تبدو أقرب إلى مواقف الإمارة . وحسب قول مفاوض بارز من حكومة طالبان أثناء نقاش له مع وفد إيراني (إن مشكلة الإمارة مع أمريكا تأتى من مصدرين ، الأول هو تطبيقنا للشريعة الإسلامية والثانى هو تمسكنا بإستقلالنا السياسى ، وفى ذلك نبدو أقرب إلى مواقف الإمام الخميني).

لم يدرك ذلك المفاوض البارز ، كما لم أدرك أنا أيضا بل لم أصدق فى الحقيقة ، أن إيران وفور نهاية الحرب مع العراق ودعت عهد السياسات العقائدية وتحولت إلى البراجماتية السياسية . وأول ضحايا ذلك التحول كانت أفغانستان ، بداية من تسعير الحروب الأهلية وصولا إلى تسليم إستراتيجية النصر فى الحرب إلى يد الأمريكيين حسب قول خاتمی رئيس الجمهورية آنذاك ، وبتأكيد من الشيخ رفسنجانی رجل الدولة الأول فى جميع عهودها وصانع الملوك فيها . وتلك على ما أتصور أحد نقاط الإختلاف الأساسية بين حكومة إيران وحركة طالبان.

إنه الإختلاف بين ثورة إسلامية تحولت إلى البرجماتية السياسية فور وفاة مؤسسها فى إيران فبدأت فى تحقيق مصالحها فقط بصرف النظر عن الإعتبارات المبدئية للدين ، وبين ثورة إسلامية أشد جذرية وأكثر صدقا فى التزامها الدينى ، تخضع سياساتها لإعتباراته دون غيرها . وهكذا دخلت حركة طالبان الحرب ضد الولايات المتحدة المدعومة بحلف الناتو وما مجموعة ٤٤ دولة محاربة ، وذلك حتى لا تتخلى عن مبدأ إسلامى يبدو بسيطا ، مبدأ يقول بعدم تسليم مسلم لكافر . لهذا رفضوا تسليم بن لادن للولايات المتحدة وفضلوا دخول الحرب على أن يفتروا ذلك العار الدينى والأخلاقى (قال الملا محمد عمر : لن أترك إبنى يعيره الناس أن أبيه سلم مسلما لكافر).

ولكن المنطلقات البرجماتية لحكومة طهران سوغت لها تسليم أفغانستان كلها بسكانها الأربعة والعشرين مليونا إلى الأمريكان .

وسوغت لها أيضا ومن أجل توسيع رقعة الإتفاق مع الشيطان الأكبر أن تفتتح سلسلة من السجون السرية للعرب الذين فروا إليها من ملاحقات الأمن الباكستانية . وقد سقط هؤلاء العرب / مجبرين حيث لم يكن لديهم خيارا آخر/ فى نفس الخطأ المشار إليه ، أى خطأ عدم ملاحظة التحول التاريخى الذى أصاب الثورة الإيرانية بعدما " نضجت " وتحولت إلى دولة .

= أعود فأقول أنه من طرف حركة طالبان لم يكن لديهم أى منطلق طائفى للعداء مع إيران أو الشيعة فى أفغانستان . بل حافظوا منذ اليوم الأول وحتى اللحظة الراهنة على منطلقات إسلامية نقية غير طائفية وغير عرقية . ورغم ضغوط شديدة وإغراءات أشد لم تنزلق الحركة

إلى قتال أو فتنة من هذا النوع ، بينما في مجتمعات أكثر تحضرا مثل العراق سالت الدماء أنهارا وأستعرت الفتن الطائفية الشيطانية ، ومعها الجاهليات العرقية المنتنة .
= ومن الصحيح أيضا أن نقول : إن المشاريع الإسلامية الفاشلة تجنح إلى الفتنة الطائفية كوسيلة للبقاء والحفاظ على جمهور من المؤيدين . لهذا فإن التجارب الإسلامية المفتعلة مثل السعودية ، أو تلك التي "وصلت سن الرشد ونضجت" ودخلت إلى مرحلة البرجماتية كما في إيران ، يلزمها دوما مناخ من الفتنة الطائفية يكون كفيلا بإبقاء أبناء الطائفة تحت الرعب ، وبالتالي يتوسلون إلى الدولة الأم كي تقوم بدور الراعي والحارس الأمين ، في مقابل عائد أو مزايا ما ، سياسية أو إقتصادية.

وما يسرى على الدول يسرى على الحركات الإسلامية التي بعد أن فشلت في التواصل مع شعوبها ، لجأت إلى تسعير الفتنة حتى يشعر أبناء الطائفة بالحاجة إلى خدمات تلك الجماعات التي ترفع رايات الدم وتدق طبول الحرب على الدوام.

إن الفتن العرقية والطائفية التي شهدتها العراق وأفشلت جهاده ، تفادتها حركة طالبان أفغانستان رغم أن قوى الفشل الإسلامي حاولت بكل عنف حرق الحركة عن مسارها . وخلال حكم طالبان تسببت قوى الفتنة الإقليمية في مجازر بين الأفغان ثم أقلت بمسئوليتها على حركة طالبان ، ولكن في فترة الإحتلال الأمريكي لم يظهر أى أثر لتلك الفتن رغم أن طالبان تسيطر على معظم أراضي البلاد في ظل وضع سياسى داخلى يغرى بممارسة التجاوزات . إن مشعلى نيران الفتنة في الإقليم مشغولون الآن في دعم الإحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق وتثبيت أركان الأنظمة الهزلية التي أقامها المحتل هناك ، لأنها تتيح فرصا أفضل لإمتداد نفوذهم .

إختصارا فإن حركة طالبان تقاتل لطرد المحتل الأمريكى من أفغانستان ، ولم تعتنق يوما فكرا طائفيا تكفيريا ، أو توجهها عرقيا منتنا . فمزال جهاد أفغانستان يمثل ثورة إسلامية نقية ظاهرة ومثالية ، لهذا يود الجيران تدميرهم ومنعهم من تولي السلطة مجددا بعد نجاحهم في حرب التحرير الجهادية . إن البرجماتيون يواصلون تشويه حركة طالبان ووصمها بعيوب لا تصف تلك الحركة بقدر ما تصف ذلك الفريق نفسه . إنهم يصفون تلك الحركة بالعمالة للولايات المتحدة ، وبالنزعة الطائفية التكفيرية والشعبوية العرقية بل وحتى يصفونها بالإرهاب !! (ضد من ؟؟) .

ولكن لا يمكن إخفاء الحقائق إلى الأبد ، ولا بد أن تنجلي الأمور في يوم قريب . وشعب أفغانستان بحكم الإحتكاك والمعاشية يعرف حقيقة حركة طالبان التي حاربت أول مرة ضد إنحراف الأحزاب "الجهادية" المزيفة في كابل . ثم حاربت مرة أخرى ضد أقوى تكتل عدوانى في العالم تقوده الولايات المتحدة في سبيل حقول الأفيون والنفط ، وفي سبيل إقتلاع الإسلام من أفغانستان التي كانت دوما / وعبر التاريخ / القلعة الأكثر حصانة لذلك الدين .

.....

في الأخير يلزم تأكيد حقائق أظنها واضحة ، وهى:

١ - أن الشعب الإيراني هو من أعرق الشعوب التي صنعت الحضارة الإنسانية على وجه الأرض . وهو صاحب أكبر مساهمة في الحضارة والثقافة الإسلامية ، وهو صاحب أعظم ثورة شعبية إسلامية في القرن العشرين ، والتي يندر مثالها في التاريخ ، ثورة أثرت بعمق في جميع الحركات الإسلامية التي تسعى إلى العودة إلى الإسلام من جديد.

٢ - أن المذهب الشيعي الإثني عشري ، وحسب قول أعلام الأزهر العظام ، هو المذهب الخامس في الإسلام ويجوز للمسلم أن يتعبد الله به . فلا مجال إذن للتناؤذ أو إفتعال الفتن بين صفوف الأمة .

٣ - إن الدعوة إلى معادة إيران أو عزلها هو عمل يضر بشعوب المنطقة ومصالحها، لأن إيران مكون أساسي وحيوى من مكونات الأمة وعنصر قوة كبيرة تضاف إليها . والخلاف السياسي لا يعنى العداء أو إشعال الحروب ، بل يعنى الدعوة إلى المزيد من الحوار والبحث عن نقاط الإلتقاء والمصالح المشتركة بعيدا عن كوابيس الشكوك المتبادلة أو سذاجة المثالية المفرطة .

- تلك حقائق لا ينكرها أحد ، سوى هؤلاء الساهرين على أيقاظ الفتنة بين ضفتى المعسكر الإسلامى . فنيران الفتنة بين المسلمين هى الجنة التى يحب الشيطان أن يعيش فيها ، خاصة الشيطان الأكبر (الولايات المتحدة) ثم الشيطان الأكبر منه (إسرائيل) .